

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والفاهرة بجمال الدين أبي المحسن يوسف ابن تغري بركة

بسم
الأستاذ إبراهيم الأسيرى

تمهيد

واعلم علم التاريخ في نشأته نشأة الأمة العربية ، فكان حديثاً عن أنساب الناس حين كانوا قبائل مترحلة لم تستقر الأماكن تحت أرجلها ، كما كان حديثاً عن أيامهم ومآثرهم حين تشاحنوا على مواقع الحيات حيث الحصب ، وحين ظهر من بينهم الأنجاد والأجداد : وعندما استوت لهم مدن كان حديثهم عنها يمثل التاريخ الجامع لشئونهم الكثيرة ، وشاعت عصبية الوطن بعدما اختفت عصبية النسب وإذا هذه الأوطان تختصها المؤرخون بكتب خاصة .

ومن أقدم ما انتهى إلينا من ذلك - أعني الحديث عن البلدان - أخبار الحيرة لهشام بن محمد الكلبي (٢٠٤ هـ) . وقد أخذ مؤرخو كل إقليم منذ القرن الثالث في جمع ما يتصل بتاريخ إقليمهم ، فكان من ذلك تاريخ مصر والإسكندرية للواقدي أبي عبد الله محمد بن عمر (٢٠٧ هـ) ، وأخبار مكة للأزرق أبي الوليد محمد بن عبد الله (٢٢٣ هـ) ، ثم فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله (٢٥٧ هـ)

وما إن أهل القرن الرابع الهجري حتى انضمت إلى هذه المدرسة التاريخية مدرسة أخرى تعنى بالحديث عن خطط البلاد ، وكان أول من ألف في ذلك أبو عمر محمد بن يوسف الكندي (٣٥٠ هـ) .

ومضت هاتان المدرستان المختصتان بالمدن تتسعان للكثير مع القرون اللاحقة ، وكان ممن كتبوا عن مصر في الجانب التاريخي :

١ - ابن يونس عبد الرحمن بن أحمد الصديقي (٣٤٧ هـ) وله تاريخان : أحدهما لأهل مصر ، والثاني للغرباء الواردين عليها .

٢ - أبو عمر محمد بن يوسف الكندي (٣٥٠ هـ) وله : فضائل مصر المحروسة .

٣ - ابن زولاق الحسين بن إبراهيم (٣٨٧ هـ) وله : الذيل على تاريخ الصديقي .

٤ - المنجم علي بن عبد الرحمن بن أحمد بن يونس (٣٩٩ هـ) وله : تاريخ أعيان مصر .

٥ - الحضرمي أبو القاسم يحيى بن علي (٤١٦ هـ) وله : ذيل أيضاً على تاريخ الصديقي .

٦ - المسيحي عز الملك محمد بن عبد الله (٤٢٠ هـ) وله : تاريخ مصر .

- ٧- أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسي (٥٢٩هـ) : وله : الرسالة المصرية ، ذكر فيها من اجتمع بهم من أهل مصر وما شاهد من آثارها .
- ٨- ابن الصيرفي أبو القاسم علي بن منجب (٥٥٠هـ) : وله : الإشارة إلى من نال الوزارة .
- ٩- إبراهيم بن وسيط شاه (٥٩٩هـ) : وله : جواهر البحور ووقائع الدهور في أخبار الديار المصرية .
- ١٠- موفق الدين عبد اللطيف البغدادى (٦٢٩هـ) : وله : أخبار مصر .
- ١١- ابن أبي طي يحيى بن حميد الحلبي (٦٣٠هـ)
- ١٢- القفطى جمال الدين علي بن يوسف (٦٤٠هـ) : وله : تاريخ مصر .
- ١٣- التيفاشي أحمد بن يوسف (٦٥١هـ) : وله : سجع الهديل في أخبار النيل .
- ١٤- أبو المظفر وحيد الدين منصور بن سليم الإسكندري (٦٧٤هـ) : وله : تاريخ الإسكندرية .
- ١٥- ابن ميسر المصري أبو عبد الله محمد بن علي (٦٧٧هـ) : وله : أخبار مصر ، وهو يعد ذيلًا على تاريخ مصر للمسبحي .
- ١٦- ابن دانيال شمس الدين أبو عبد الله محمد الخزاعي (٧١٠هـ) : وله : عقود الجواهر فيمن ولى مصر
- ١٧- الأدفوى أبو الفضل جعفر بن ثعلب (٧٤٩هـ) : وله : الطالع السعيد الجامع لأسماء فضلاء الصعيد .
- ١٨- ابن الدريهم الموصلى تاج الدين علي بن محمد (٧٦٢هـ) : وله : الانصاف بالدليل في أوصاف النيل .
- ١٩- ابن مرزوق التلمساني شمس الدين محمد بن أحمد (٧٨١هـ) : وله : أشرف الطرف للملك الأشرف .
- ٢٠- ابن الطولوني حسن بن حصين بن أحمد (٨٣٢هـ) : وله : الزهرة السنية في أخبار الخلفاء والملوك المصرية .

- ٢١- المقرئ تقي الدين أحمد بن علي (٨٤٥هـ) : وله : عقد الجواهر الأسفاط من أخبار مدينة القسطنطينية والسلوك .
- ٢٢- ابن حجر العسقلاني أحمد بن علي (٨٥٢هـ) : وله : الإعلام بمن ولى مصر في الإسلام .
- ٢٣- الباعوني أبو الفضل محمد بن أحمد (٨٧١هـ) : وله : فرائد السلوك في تاريخ الخلفاء والملوك .
- ٢٤- ابن تغرى بردى جمال الدين يوسف (٨٧٤هـ) : وله : النجوم الزاهرة ، الذى سنحدثك عنه وعن كتابه .
- ٢٥- السيوطى جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (٩١١هـ) : وله : حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، وتحفة الكرام بأخبار الأهرام .
- ٢٦- الباعوني محمد بن يوسف (٩١٦هـ) : وله : الإشارة الوافية .
- ٢٧- ابن إياس محمد بن أحمد (٩٣٠هـ) : وله : بدائع الزهور في وقائع الدهور .
- وتتالى من بعد ذلك فى هذا الميدان مؤلفون بأساليب تقارب وتباعده من المنهج الذى بدأه السابقون .
- أما عن مدرسة الخطط فقد بدأها - كما قدمت - الكندى (٩٣٥هـ) ثم جاء من بعده :
- ١- ابن زولاق الحسين بن إبراهيم بن الحسين (٩٨٧هـ) وعنه يقول ابن خلكان : وله كتاب فى خطط مصر استقصى فيه .
- ٢- القضاعى أبو عبد الله محمد بن سلامة (٩٥٤هـ) : وله : المختار فى ذكر الخطط والآثار .
- ٣- أبو عبد الله محمد بن بركات النحوى (٩٥٠هـ) وهو تلميذ القضاعى . وقد ذكره حاجى خليفة فىمن كتب فى خطط مصر ولم يذكر اسم مؤلفه .
- ٤- الشريف محمد بن إسماعيل الجوانى ، وله : النقط لمعجم ما أشكل من الخطط ، قال عنه حاجى خليفة : وقد نبه فيه على معالم قد دثرت .

٥ - ابن نشوان محي الدين عبدالله بن عبد الظاهر (٦٩٢ هـ) وله : الروضة البهية الزاهرة والخطط المصرية القاهرة .

٦ - ابن المتوج تاج الدين محمد بن عبد الوهاب (٧٣٠ هـ) وله : إيقاظ المنفعل وإيعاظ المتوسل ، بين فيه أحوال مصر وخططها إلى سنة ٧٢٥ هـ .

٧ - المقرئ تقي الدين أحمد بن عبد القادر (٨٤٥ هـ) وله : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار .

٨ - علي مبارك (١٣١١ هـ) وله : الخطط التوفيقية .

ابن تغري بردى

بالقرب من مدرسة السلطان حسن (حى القلعة الآن) وفي دار كانت للأمير سنجك اليوسفى ، وفي حدود سنة (٨١٢ هـ) كان مولد مؤلفنا يوسف بن الأمير تغرى بردى .

على هذا تلميذه أحمد بن حسن التركمانى ، المعروف بالمرجى ، فى ترجمته للمؤلف بآخر كتاب المنهل الصافى . ويشاركه هذا رأى ابن العماد الحنبلى فى كتابه شذرات الذهب عند الكلام على حوادث سنة (٨٧٤ هـ) ، وابن إياس فى تاريخه .

وخالههم السخاوى فى كتابه الضوء اللامع فيقول : « ولد فى شوال تحيقاً سنة ثلاث عشرة وثمانمائة تقريباً » ويعيننا أن نقول إن الذى ذكره تلميذه التركمانى كان نقلاً عن المؤلف نفسه ، فهو يقول : سألته عن مولده فقال : مولدى بالقاهرة . . . فى حدود سنة اثنتى عشرة وثمانمائة تقريباً . . .

وكان أبوه تغرى بردى مملوكاً رومياً جميل الطلعة اشتراه السلطان برقوق وجعله من مماليكه ، وحين شب أعتقه وضمه إلى إحدى فرق الممالك السلطانية .

وبعد أن توفى برقوق وتولى ابنه فرج بن برقوق الأمر مكانه ، نبه شأن تغرى بردى فتولى نيابة دمشق ، إلى أن كان دخول تيمور لنك إلى الشام وانهمز فرج ابن برقوق بجيوشه أمامه ورجوع تغرى بردى معه . ثم عاد تغرى بردى إلى نيابة دمشق للمرة الثانية بعد خروج التتار عن الشام ، غير أنه ما لبث أن اتهم بالخيانة العظمى ، فهرب إلى التركمان وبقي هناك إلى أن عفا عنه السلطان ، وتزوج من كبرى بناته فاطمة وولاه نيابة دمشق للمرة الثالثة ، فبقى عليها إلى أن وافته منيته سنة ٨١٤ هـ .

وحيث ترك هذا الأب ذنياه خلف من ورائه أبناء ستة - كان أبو المحاسن أصغرهم ، وكان عندها فى الثانية من عمره - وبنات أربعاً منهن : خوند فاطمة ، زوج السلطان فرج ، وبيرم ، وكانت زوجة لقاضى القضاة ناصر الدين بن النديم الحنفى ، وبعد وفاته تزوجت قاضى القضاة جلال الدين البلقينى الشافعى .

ونشأ رجلنا أبو المحاسن يتما ، ذاق اليتيم مبكراً ، فقد توفى أبوه وهو فى الثانية من عمره كما مر بك ، فتولى تربيته زوج أخته بيرم قاضى القضاة ناصر الدين محمد بن النديم إلى أن مات ابن النديم سنة تسع عشرة وثمانمائة ، فتولى تربيته الزوج الثانى لبيرم وهو قاضى القضاة جلال الدين عبد الرحمن البلقينى الشافعى ، فأخذ فى تحفيظه القرآن الكريم ، وما إن أتم حفظه حتى كان الفتى قد كبر وترعرع واستعد للتلقى والتعلم ، فحفظ مختصر القدورى فى فروع الحنفية ومضى يستزيد فى دراسة المذهب الحنفى ، وهو منهج زوج الأخت الراحل ابن النديم ، ولم يلتفت للمذهب الشافعى وهو مذهب زوج أخته البلقينى ، ففتقه بالشيخ شمس الدين محمد الرومى ، وبقاضى القضاة بهاء الدين أبى البقاء الحنفى قاضى مكة ، وبقاضى القضاة بدر الدين محمود العينى الحنفى ، ودفعه ميله إلى المذهب ألا يأخذ النحو وغيره من علوم أخرى إلا عن أحناف إن وجد ، فأخذ النحو عن تقي الدين الشُّمْنَى الحنفى ، وقرأ

المقامات الحزبية على قوام الدين محمد بن محمد الحنفى ، وأخذ البديع والأدبيات عن شهاب الدين أحمد بن عمر شاه الدمشقى الحنفى .

وكانت له ملازمة لمشايخ عصره وإفادة من أدبهم ومن علمهم مثل : شهاب الدين أحمد بن حجر ، وقاضى القضاة جلال الدين أبى السعادات بن ظهيرة قاضى مكة ، والعلامة بدر الدين بن العلييف ، وقطب الدين أبى الخير بن عبد القوى ، وكان هذان الأخيران شاعري مكة فأخذ عنهما أبو المحاسن الكثير من شعرهما وتأدب بأدبهما ، وكانت له غير هذا ساعات كثيرة على مشايخ كثيرين نخاف أن نثقل بذكر أسمائهم .

ثم حبب إليه علم التاريخ فلازم مؤرخى عصره مثل قاضى القضاة بدر الدين محمود العيني ، والشيخ تقي الدين المقرئى .

وكان له ولع بالفروسية فأجاد فنونها ، كلعب الرمح ورمى النشاب ولعب الكرة ، كما حذق فنون النغم والضروب والإيقاع وفاق فى ذلك أهل زمانه .

وكان إلى هذا كله ورعاً دينياً عفيفاً مع حسن محاضرة ولطف منادمة وحشمة زائدة ، وحياء كثير وميل إلى الخير ومحبة لأهل العلم والفضل والصالح .

وهذه الحياة الجامعة بصرت أبا المحاسن بأن يشارك فى أمور كثيرة وأن يخاطب فئات مختلفة ، وحين أخذ فى التاريخ استقامت له من تلك الحصيلة الكبيرة مادة غزيرة ومكنته هذه المنافذ المختلفة من أن يسلك سبلاً متنوعة .

ولقد كان هذا القرن التاسع الهجرى من أهم القرون التاريخية ، فلقد أظلم مع أبى المحاسن جملة من مشهورى المؤرخين فى مصر ، منهم من نشأ فيها ومنهم من ألم بها مثل ابن خلدون والمقرئى وابن حجر والعيني وابن عرب شاه وخليل بن شاهين والخالدى بهاء الدين بن محمد العمري ، وابن الصدفى ، والسخاوى ، وابن

لياس ، والسيوطى وعبد الباسط بن خليل الحنفى ، وابن الطولونى حسن ، وابن زنبيل أحمد الرّمّال .

هذا العصر الحافل بالمؤرخين والكتب التاريخية هو الذى أظلم أبا المحاسن ، وقد عاش أبو المحاسن بين أجيالهم فلقد عاصر المقرئى والعيني وابن حجر وعاصره ابن الصيرفى والسخاوى وابن لياس . وحين قبض الله عليه المقرئى ثم العيني أصبحت زعامة التاريخ فى مصر لأبى المحاسن .

مؤلفاته

١ - المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى . وهو يضم تراجم الأعيان والنايين من أوائل الدولة التركية من المعز أيبك التركمانى إلى زمن المؤلف . وقد أراد به مؤلفه أن يجعله ذيلًا للوافى ، تأليف الصدفى . وقد أخذت دار الكتب المصرية فى طبعه وتولته عنها دار التأليف والترجمة .

٢ - الدليل الشافى على المنهل الصافى ، وهو مختصر للمنهل الصافى ، ومنه مصورة بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية .

٣ - مورد اللطافة فى ذكر من ولى السلطنة والخلافة . اقتصر فيه على ذكر الخلفاء والسلاطين ، وهو اختصار للدليل الشافى . ومنه مصورة بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية .

٤ - منهل الظرافة للدليل مورد اللطافة . ويشمل أسماء أمراء مصر إلى سنة ٨٨٤ هـ ، ومنه نسخة بمكتبة برلين .

٥ - حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور . جعله مؤلفه ذيلًا لكتاب السلوك للمقرئى فبدأه من حيث انتهى ، أى من سنة ٨٥٦ هـ ، وقد خالف المقرئى فى طريقته فأطال فى التراجم إلا ما جاء ذكره فى كتابه المنهل الصافى . ومنه مصورة بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية .

٦ - نزهة الرائي في التاريخ . وهو تاريخ متصل على السنين والشهور والأيام وفي مجلدات عدة ، منها الجزء التاسع في مكتبة أكسفورد . ويضم حوادث السنين من ٦٧٨ - ٧٤٧ هـ .

٧ - البحر الزاخر في علم الأوائل والأواخر . مرتب على السنين . ومنه جزء صغير بالمكتبة الأهلية ببغداد يحوى حوادث السنين من ٣٢ - ٧٢ هـ .

٨ - منشأ اللطافة في ذكر من ولى الخلافة . يؤرخ لمصر من أقدم أزمانها إلى سنة ٧١٩ هـ . ومنه نسخة بالمكتبة الأهلية ببغداد .

٩ - نزهة الإلباب في اختلاف الأسماء والألقاب :

١٠ - حلية الصفات في الأسماء والصناعات ، مرتب على الحروف يشتمل على مقاطيع وتواريخ وأدبيات .

١١ - البشارة في تكملة الإشارة ، وهو ذيل على كتاب الإشارة للمحافظ الذهبي .

١٢ - الانتصار للسان التتار ، وهو في معاني اللغة التركية .

١٣ - كتاب في الرياضيات والموسيقى :

١٤ - السكر الفاضح والطر الفائح ، في التصوف ، ومنه نسخة بمكتبة الإسكوريال . ثم كتابه :

١٥ - النجوم الزاهرة .

وهو من أهم ما ألف أبو المحاسن ، يؤرخ فيه لمصر منذ الفتح الإسلامى إلى الدولة الأشرفية سنة ٥٨٧ هـ مع استطرادات كثيرة في أخبار البلاد المحاورة ، وهو مرتب على السنين وفي آخر كل سنة تراجم من مات فيها وزيادة النيل ونقصانه . . يقول ابن تغرى بردى في خطبة هذا الكتاب :

«أما بعد فلما كان لمصر مزرة على كل بلد بخدمة الحرمين الشريفين ، أحببت أن أجعل تاريخاً للموكها مستوعباً من غير ميسر ، فحملنى ذلك على تأليف هذا الكتاب وإنشائه ، وقمت بتصنيفه وأعبائه ، واستفتحت

بفتح مصر وما وقع لهم في المسالك ومن حضرها من الصحابة ومن كان المتولى لذلك ، وعلى أى وجه فتحت : صلح أم غنوة من أصحابها ، وأجمع في ذلك أقوال من اختلف من المؤرخين وأهل الأخبار وأربابها ، وذلك بعد اتصال سندی إلى من ولى عنه منهم رواية ، ليجمع الواقف عليه بين صحة النقل والدراية ، وأطلق عنان القلم فيما جاء في فضلها وذكرها من الكتاب العزيز ، وما ورد في حقها من الأحاديث وما اختصت به من المحاسن فصار لها على غيرها بذلك التميز ، ثم أذكر من ولها من يوم فتحت وما وقع في دولته من العجب ، واحداً بعد واحد لا أقدم أحداً منهم على أحد باسم ولا كنية ولا لقب ، ثم أذكر أيضاً في كل ترجمة ما أحدث صاحبها في أيام ولايته من الأمور ، وما جده من القواعد والوظائف والولايات في مدى الدهور ، ولا أقتصر على ذلك ، بل أستطرد إلى ذكر ما بنى فيها من المباني الزاهرة ، كالمبادين والجوامع ومقاييس النيل وعمارة القاهرة ، أولاً بأول أذكره في يوم مبناه وفي زمان سلطانه ، مستوعباً لهذا المعنى ضابطاً لشأنه ، على أننى أذكر من توفي من الأعيان في دولة كل خليفة وسلطان باقتصار ، بعد فراغ ترجمة المقصود من الملوك مع ذكر بعض الحوادث في مدة ولاية المذكور في أبحار قطر من الأقطار ، وأبدأ فيه بعد التعريف بأحوال مصر بولاية عمرو بن العاص في المملكة الإسلامية ، ثم ملكك بعد ملك كل واحد على حدثه ، وما وقع في أيامه إلى الدولة الأشرفية الإبنالية ، وسميته :

« النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة » .

والله الموفق والمنان ، وبالله المستعان .

ويقال إن الصحبة التي كانت بين المؤلف والأمير محمد بن جقمق هي التي حملته على أن يأخذ في تأليف هذا التاريخ ، وكان في نيته أن يختتم بحكمه غير أن المنية عاجلت ابن جقمق قبل أن يأخذ المؤلف في تأليف هذا

التاريخ الكبير ، فلقد كانت وفاة ابن جقمق نحواً من سنة ٨٣٢ هـ .

ولما فتح السلطان سليم العثماني مصر ووقع له هذا الكتاب أمر بنقله إلى التركية فنقله شمس الدين أحمد بن سليمان بن كمال باشا قاضي العسكر بالأناضول يومئذ . ويقول شمس الدين ساي في كتابه قاموس الأعلام التركي أنه ترجم إلى اللغة اللاتينية وإلى لغات أوربية أخرى .

وقد ذكر حاجي خليفة أن المؤلف قد لخص هذا الكتاب وسماه « الكواكب الباهرة في النجوم الزاهرة » وقال : وهو مجلد أوله الحمد لله الذي زين السماء الدنيا بالنجوم الزاهرة . . . الخ . ثم قال : ذكر أنه اختصره حذراً من أن يختصره غيره على تبويبه وفصوله واقتدى في ذلك بجماعة من العلماء كالذهبي والمقريزي ، فإن الذهبي اختصر تاريخ الإسلام بسير النبلاء ، ثم اختصر سير النبلاء بالعبر ، ثم اختصر العبر بالإشارة إلى وفيات الأعيان .

وقد اهتم بنشر كتاب النجوم الزاهرة المستشرقون منذ زمن بعيد ، فأخرج منه المستشرق الهولندي جونيل مجلدين كبيرين في أربعة أجزاء مع مقدمة وملاحظات باللغة اللاتينية طبعت بمطبعة بريل في مدينة ليدن من سنة ١٨٥١ - ١٨٥٥ م .

ويشمل المجلد الأول السنين من ٢٠ - ٢٥٣ ، والثاني ٢٥٤ - ٣٦٥ هـ

كما أخرج المستشرق الأمريكي وليم بوير منه عشرة مجلدات مع مقدمة باللغة الإنجليزية وقد طبعت بكاليفورنيا من سنة ١٩٠٩ - ١٩٢٩ وتشتمل على السنين من ٣٦٥ - ٥٦٦ ، ومن سنة ٨٠١ - ٨٧٢ هـ . ومن هذا نرى أن الجزء الخاص بالسنين من ٥٦٧ - ٨٠٠ ، لم يخرج . وقد أخذت دار الكتب المصرية في طبع هذا الكتاب كله طبعة محققة فصورت للنسخة الخطية المحفوظة منه بمكتبة أياصوفيا وقد

أصدرت الجزء الأول سنة ١٩٢٧ وينتهي بسنة ١٤٣ هـ ومضت تخرجه مع الأعوام أجزاء كل جزء يضم حقبة من السنين - وقد ذيل كل جزء بفهارس واسعة مختلفة وقد انتهت إلى الجزء الرابع عشر .

ثم تولت دار التأليف والترجمة بوزارة الثقافة الأجزاء الباقية ، وسوف تخرج قريباً .

وقد أعادت دار التأليف طبع الأجزاء الأولى التي طبعت في دار الكتب واقتطعت منها الفهارس لتضمها كلها معاً في آخر الكتاب بعد تمام طبعه .

وهذا شيء مما جاء في كتاب النجوم الزاهرة عن ولاية الظافر :

ذكر ولاية الظافر على مصر

الظافر بالله أبو منصور إسماعيل بن الحافظ لدين الله أبي الميمون عبد المجيد بن الأمير محمد ، ابن الخليفة المستنصر معد بن الظاهر على بن الحاكم منصور بن العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله معد ، التاسع من خلفاء مصر من بني عبيد ، والثاني عشر منهم ممن ولي من أجداده خلفاء المغرب .

بويج بالخلافة بعد موت أبيه الحافظ في جهادي الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، وهو ابن سبع عشرة سنة وأشهر ، لأن مولده في يوم الأحد منتصف شهر ربيع الآخر سنة سبع وعشرين وخمسمائة . وأمه أم ولد تدعى ست الوفاء ، وقيل : ست المنى .

قال العلامة شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزأوغلي سبط ابن الجوزي في تاريخه مرآة الزمان - بعد أن ساه يوسف ، والصواب ما قلناه أنه لإسماعيل - قال : « وكانت أيامه مضطربة لحداثة سنه واشتغاله باللهو ، وكان عباس الصنهاجي لما قتل ابن سلار وزر له واستولى عليه . وكان له ولد اسمه نصر ، فأطمع نفسه في الأمر وأراد قتل أبيه ، ودس إليه سماً ليقترله . فعلم أبوه واحترز وأراد أن يقبض عليه فما قدر ، ومنعه

مويد الدولة أسامة بن منقذ وقبح عليه ذلك ، وقال :
 إن فعلت هذا لم يبق لك أحد ويفر الناس عنك . فشرع
 أبوه يلاطفه (يعنى الوزير عباس يلاطف ابنه نصراً)
 وقال له : عوض ما تقتلنى اقتل الظافر . وكان نصر
 ينادم الظافر ويعاشره ، وكان الظافر يثق به وينزل فى
 الليل إلى داره متخفياً . فنزل إليه إلى داره وكانت
 بالسيوفيين داخل القاهرة ومعه خادم له ، فشربا وتام
 الظافر ، فقام نصر فقتله ورمى به فى بئر . فلما أصبح
 عباس (يعنى الوزير أبا نصر المذكور) جاء إلى باب
 القصر يطلب الظافر ، فقال له خادم القصر : ابنك
 يعرف أين هو (ومن) قتله . فقال عباس : ما لابنى
 فيه علم . وأحضر أخوى الظافر وابن أخيه فقتلهم
 صبرا بين يديه ، وأحضر أعيان الدولة وقال : إن
 الظافر ركب البارية فى مركب فانقلبت به فغرق . ثم
 أخرج عيسى ولد الظافر . ففترقوا عن عباس وابنه ،
 وثار الجنود والعبيد وأهل القاهرة وطلبوا بثار الظافر من
 عباس وابنه نصر . فأخذ عباس وابنه نصر ما قدرا
 عليه من المال والجواهر وهربا إلى الشام . فبلغ الفرنج
 فخرجوا إليهما ، وقتلوا عباساً وأسروا ابنه نصراً ،
 وقتل نصر فى السنة الآتية . انتهى .

وقال القاضى شمس الدين أحمد بن خلكان :
 « بويح يوم مات أبوه بوصية أبيه ، وكان أصغر أولاد
 أبيه سنّاً . كان كثر اللهو واللعب ، والتفرد بالجوارى ،
 واستماع المغانى . وكان يأنس بنصر بن عباس . فاستدعاه
 إلى دار أبيه ليلاً سرّاً بحيث لا يعلم به أحد ، وتلك الدار
 فى المدرسة الحنفية السيوفية الآن ، فقتله بها وأخفى
 أمره . قال : وقصته مشهورة ، وذلك فى نصف
 الحرم سنة تسع وأربعين وخمسمائة . وكان من أحسن
 الناس صورة . والجامع الظافرى الذى بالقاهرة داخل
 باب زويلة منسوب إليه ، وهو الذى عمره وأوقف
 عليه شيئاً كثيراً . انتهى كلام ابن خلكان . قلت :

والجامع الظافرى هو المعروف الآن بجامع الفاكهانيين
 على الشارع الأعظم بالقرب من حارة الديلم .
 وقال ابن القلانسى : « إن الظافر لما قتلته أخواه
 يوسف وجبريل وابن عمهما صالح بن الحسن . »
 قلت : وهذا القول يؤيده قول ما نقله أبو المظفر من
 أن عباساً قتل أخوى الظافر وابن عمه صبرا (أعنى
 لما بلغه قتلهم للظافر قتلهم به) غير أن جمهور المؤرخين
 اتفقوا على أن قاتل الظافر نصر بن عباس المقدم ذكره .
 قال : وكان الظافر قد ركن إليهم (يعنى أخويه
 وابن عمه) وأنس بهم فى وقت مسراته ، فاتفقوا عليه
 واغتالوه ، وذلك فى يوم الخميس سلى صفر . وحضر
 العادل عباس الوزير وابنه ناصر الدين نصر وجماعة
 (من) الأمراء والمتممين (للسلام) على الرسم . فقبل
 لهم : إن أمير المؤمنين ملثا الجسم . فطلبوا الدخول
 إليه فنعوا ، فألحوا فى الدخول بسبب العيادة فلم يمكنوا .
 فهجموا ودخلوا القصر وانكشف أمره ، فقتلوا الثلاثة
 وأقاموا ولده عيسى وهو ابن ثلاث سنوات ، ولقبوه
 بالفائز بنصر الله وبايعوه ، وعباس الوزير إليه تدبير
 الأمور . ثم ورد الخبر بأن طلائع بن رزيك فارس
 المسلمين قد امتنع من ذلك وجمع وحشد وقصد
 القاهرة ، وكان من أكابر الأمراء . وعلم عباس أنه
 لا طاقة له به ، فجمع أمراء وأسبابه وأهله وخرج
 من القاهرة فلما قرب من عسقلان وغزة خرج عليه
 جماعة من خيالة الفرنج ، فاغتر بكثرة من معه ، فلما
 حمل عليهم قتل أكثر أصحابه وانهمزوا ، فانهزم هو
 وابنه الصغير وأسر ابنه الكبير الذى قتل ابن سلا مع
 ولده وحرمة وماله وكراعه ، وصار الجميع للفرنج ،
 ومن هرب مات من الجوع والعطش . ووصل طلائع
 ابن رزيك إلى القاهرة ، فوضع السيف فىمن بقى من
 أصحاب عباس ، وجلس فى منصب الوزارة . انتهى
 كلام ابن القلانسى . وما نقله غالبه مخالف لغيره من
 المؤرخين . والله أعلم .

وقيل غير ذلك : أن خدام القصر كتبوا إلى طلائع
ابن رزيك وهو والى فوص وأسوان والصعيد بخبرونه
بقتل الظافر ويستنجذونه على عباس وابنه نصر . وكتب
إليه فيمن كتب القاضي الجليس أبو المعلى عبد العزيز
ابن الحباب قصيدته الدالية التي أولها :

دمعى عن نظم القريض غوادى

وشف فوادى شجوه المهادى

وأرق عيني والعيون هواجع

هموم أقضت مضجعى ووسادى

بمصرع أبناء الوصى وعرة الـ

سبي وآل الداريات وصاد

فأين بنو رزيك عنهم ونصرهم

وما لهم من منعة وذباد

أولئك أنصار الهدى وبنو الردى

وسم العدا من حاضرين وباد

لقد هد ركن الدين ليلة قتله

بخير دليل للنجاة وهاد

تدارك من الإيمان قبل دثوره

حشاشة نفس آذنت بنفاد

وقد كاد أن يطفى تألق نوره

على الحق عاد من بقية عاد

فلو عاينت عينك بالقصر يومهم

ومصرعهم لم تكتحل برقاد

وهى طويلة كلها على هذا المنوال فى معنى النجدة .
وقد نقاتها من خط عقد لا يقرأ إلا بجهد . فلما بلغ ذلك
طلائع بن رزيك جمع ودخل القاهرة فى تاسع شهر
ربيع الأول ، وجلس فى دست الوزارة ، وتلقب
بالمك الصالح ، وهو صاحب الجامع خارج بابى زويلة
وأخرج جسد الظافر من البئر التى كان رى فيها بعد
قتله وجعله فى تابوت ومشى بين يديه حافياً مكشوف
الرأس ، وفعل الناس كذلك ، وكثر الضجيج والبكاء
والعويل فى ذلك اليوم .

وقال بعضهم وأوضح الأمر ، وقوله : إن الظافر
كان قد أحب نصر بن عباس حباً شديداً ، وبقي
لا يفارقه ليلاً ونهاراً . فقدم مؤيد الدولة أسامة بن
منقذ من الشام ، فقال لعباس الوزير يوماً : كيف
تصبر على ما أسمع من قبيح القول ! قال عباس :
وما يقولون ؟ قال يقولون : إن الظافر بنى على ابنك
نصر . فغضب عباس من ذلك ، وأمر ابنه نصر ،
فدعا الظافر لبيته فوثب عليه وقتله ، وساق نحواً مما
سقناه من قول أبى المظفر وابن خلكان . وانتهى كلامه
وقال صاحب كتاب المقتلين فى أخبار الدولتين :
« ولما تم أمر الظافر ركب بزي الخلافة وعاد إلى القصر ،
ولم يقدم شيئاً على انتقامه من ابنى الأنصارى لما كان
يبلغه عنهما فى أيام والده الحافظ » .

وخبر ابنى الأنصارى أنهما كانا من جملة الكتاب
وتوصلا إلى الحافظ ، فاستخدمهما فى ديوان الجيش
قصداً لتمييزهما ، وهما غير قانعين بذلك ، لما يعلمانه من
إقبال الحافظ عليهما ، فوثبا على السادة من رؤساء
الدولة مثل الأجل الموفق أبى الحجاج يوسف كاتب
دست الخليفة ومشورته ، ومن يليه مثل القاضي
المرتضى الحنك ، والخطيرى البواب ، فتجرأ على
المذكورين وغيرهم من الأمراء مع قلة دربة . فتنبع
القوم عوراتهم ، والخليفة الحافظ لا يزداد فيهما إلا
رغبة . ووقع لهما أمور قبيحة ، والقوم يبلغون الخليفة
خبرهم شيئاً بعد شيء ، وهو لا يلتفت إلى قولهم .
ولا زال ابنا الأنصارى حتى صار الأكبر شريك
الأجل الموفق فى ديوان المكاتبات ، ولكن خصص
الموفق بالإنشاء جميعه . ولما تولى ابن الأنصارى نصف
الديوان نعت بالقاضى الأجل سناء الملك ، بعد أن
وصاه الخليفة الحافظ أن يقنع مع الموفق بالرتبة ويدع
المباشرة ، ويخدم الموفق . وصبر الأجل الموفق على
ذلك مراعاة لخاطر الخليفة . وأما ابن الأنصارى الصغير
فانه تجند فتأمر فى يوم ، وخلع عليه بالطوق وما يلزم

الأمرية ، وصار أمير طوائف الأجناد . فقال الناس : هو الأمير الطائري بن الأنصارى ! وبينما هم في ذلك مرض الخليفة الحافظ ومات ، وآلت الخلافة لولده الظافر هذا . فراجع لما كنا عليه من أمر الظافر مع ولدى الأنصارى المذكورين . فركب الخليفة الظافر بعد العشاء الآخرة في الشمع بالقصر ، ووقف على باب الملك بالإيوان المحاور للشباك ، وأحضر ابنى الأنصارى واستدعى مولى الستر ، وهو صاحب العذاب ، وأحضرت آلات العقوبة ، فضرب الأكبر بحضوره بالسياط إلى أن قارب الهلاك ، وثنى بأخيه كذلك ، وأمر بإخراجهما وقطع أيديهما وسل ألسنتهما من قفيهما ، وصلبا على بابى زويلة الأول والثانى زماناً .

وأقام الظافر ابن مصال المغربى وزيراً مدة شهرين فخرج عليه ابن سلال ، وكان والياً على البحيرة والإسكندرية ، ولم يرخص بوزارة ابن مصال المذكور ، وتابعه عباس وكان والياً على الغربية ، وهو ولد زوجته ، فلما بلغ الوزير ابن مصال ذلك ، خرج إلى الصعيد لكونه لم يطق لقاء ابن سلال ومن معه على غير موافقة من الخليفة الظافر . ودخل ابن سلال إلى القاهرة وزيراً ، فما طابت به نفس الخليفة الظافر بالله ، فباشروا الأمور مباشرة بجد . وأقام الظافر خليفة إلى أوائل سنة تسع وأربعين وخمسة ، ولم يصف بين الخليفة والوزير عيش قط ، وجرت بينهما أمور ، وثبت عند ابن سلال كراهة الخليفة فيه ، فاحترز على نفسه منه ، وأقام كذلك أربع سنين وبعض الخامسة ، حتى قتله نصر بن عباس اغتيالاً في داره . وذكر أن ذلك بموافقة الخليفة الظافر على ذلك ، لأن هذا نصراً كان قد اختلط بالخليفة اختلاطاً دائماً أدى إلى حسد أكثر أهل الدولة له على ذلك . وخشى عباس على نفسه من ولده نصر المذكور لما تم منه في حق ابن سلال ، فرمى بينه وبين الخليفة بموهومات قبيحة ، حتى قتل نصر الخليفة أيضاً . ودفنه في داره التي بالسيوفيين ، وقتل أستاذين معه .

ولما عدم الخليفة استخلف ولده بعده ، وهو أبو القاسم عيسى ، ونعت بالفائز بنصر الله ، وكان عمره يومئذ خمس سنين . أخرجته الوزير عباس من عند جدته أم أبيه الخليفة يوم قتل عميه يوسف وجبريل ابني الحافظ - وهما مظلومان - بتهمة أنهما قتلا أخاهما الخليفة الظافر حسداً على الرتبة لينالها بعده . وليس الأمر كذلك ، بل عباس الوزير وولده نصر قتلاه . فرأهما الخليفة هذا الصغير مقتولين ، فتفزع واضطرب وغشى عليه . ولازمه ذلك وكثر به .

قلت : وقول هذا عندى في قتل الخليفة الظافر أثبت الأقاويل . وبكلامه أيضاً يعرف جميع ما ذكرناه في أمره من أقوال المؤرخين ، فإنه ساق أمره على جملته من غير إدخال شئ معه .

وأما تفصيل أمر عباس الوزير وابنه نصر فإن عباساً كان رجلاً من بنى تميم ملوك الغرب ، ودخل عباس القاهرة فاجتمع بالخليفة ، فأكرمه وأنعم عليه بأشياء ثم خلع عليه بالوزارة على العادة ولقبه ، فباشروا عباس الوزارة وخدم الأمور وأكرم الأمراء وأحسن إلى الأجناد لينسبهم العادل ابن سلال . واستمر ابنه نصر على مخالطة الخليفة الظافر ، حتى اشتغل الظافر عن كل أحد بابن عباس المذكور ، وأبوه عباس يكره خطته بالخليفة . وانتهى الخليفة معه إلى أن يخرج من قصره لزيارة ابن عباس بداره التي بالسيوفيين ، بحيث لا يعلم عباس بذلك . فلما علم استوحش من الخليفة لجرأة ابنه ، وتوهم أنه ربما يحمله الخليفة على قتله . فقال عباس لابنه سراً : قد أكثرت من ملازمة الخليفة حتى تحدث الناس في حقك معه بما أزعج باطنى ، وربما يتناقل الناس ذلك ويصل إلى أعدائنا منه ما لا يزول ، ففهم ابنه نصر عنه وأخذته حدة الشباب ، فقال نصر لأبيه : أيرضيك قتله ؟ فقال : أزل التهمة عنك كيف شئت . فخرج الخليفة ليلة إلى نصر بن عباس على عادته فقتله بالجماعة الذين قتل بهم الوزير ابن سلال ، وقتل

أيضاً أستاذين كانا مع الخليفة الظافر ، وطمهرهم في بئر هناك . وأصبح عباس فبايع عيسى بن الظافر ، ولقبه الفائز ، على ما يأتي ذكره في أول ترجمة الفائز .

ولما تم لعباس ما قصده من قتل الخليفة وتولية ولده الخلافة ، كثرت الأقاويل . ووقع الناس على الخبر الصحيح بالحدس . فاستوحش الناس قتل هؤلاء الأئمة . وكان طلائع بن رزيك والياً على الأشمونين ، والبهنسا ، فتحرك حاشداً على عباس ، ولبس السواد وحمل شعور النساء حرم الخليفة على الرماح . فتدخل أمر عباس وتفرق الناس عنه ، وصار الناس تسمعه المذكورة في الطرقات من كل فج ، حتى أنه رمى من طاق ببعض الشوارع وهو جائز بهاون نحاس ، وفي يوم آخر بقدر مملوءة ماء حاراً ، فقال عباس : ما بقي بعد هذا شيء . فصار يدبر كيف يخرج وأين يسلك . فأشار عليه بعض أصحابه بتحريق القاهرة قبل خروجه منها فلم يفعل ، وقال : يكفى ما جرى . فلما قرب طلائع بن رزيك إلى القاهرة خرج عباس وابنه ومعهما كل ما يملكانه طالباً للشرق . فحال الفرنج بينه وبين طريقه ، فقاتل حتى قتل وأسر ولده نصر ، وفاز الفرنج بما كان معه ، وذلك في شهر ربيع الأول سنة تسع وأربعين وخمسمائة . وأما ولده نصر فنذكر أمره وقتله في أول ترجمة الفائز بأوسع من هذا إن شاء الله تعالى .

وكانت قتلة الخليفة الظافر هذا في سلخ المحرم سنة تسع وأربعين وخمسمائة على قول من رجح ذلك ، وله اثنتان وعشرون سنة ، وكانت خلافته أربع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام . وتولى الخلافة بعده ولده الفائز عيسى .

ونذكر إن شاء الله أمر قتله أيضاً في ترجمة الفائز بأوسع من هذا هناك .

* * *

السنة الأولى من ولاية الظافر بأمر الله أبي منصور إسماعيل على مصر وهي سنة خمس وأربعين وخمسمائة .

فيها مطّرت اليمن مطراً دماً ، وبقي أثره في الأرض وفي ثياب الناس .

وفيها في المحرم نزل الملك العادل نور الدين محمود ابن زنكي صاحب الشام على دمشق وحاصرها ، فراسله صاحبها مجير الدين ، وخرج إليه هو والرئيس ابن الصوفي وبذلا له الطاعة وأن يخطب له مجير الدين بعد الخليفة والسلطان ، وأن ينقش اسمه على الدينار والدرهم ، فرضى نور الدين وخلع عليه ورحل عنه . وعاد وافتتح قلعة اعزاز .

وفيها اختلف وزير مصر ابن مصال المغربي والعادل ابن سلاّر وجمعا العساكر واقتتلا ، فقتل الوزير ابن مصال ، واستقل ابن سلاّر بالوزير والملك . وقد ذكرنا نحو ذلك في ترجمة الظافر هذا .

وفيها توفي أبو المفاخر الحسن بن ذى النون الواعظ (ابن أبي القاسم) كان فاضلاً صالحاً إماماً فقيهاً حنفياً المذهب ، كان يعيد الدرس خمسين مرة . ومن شعره :

مات الكرام ومروا وانقضوا ومضوا

ومات بعدهم تلك الكرامات

وخلفوني في قوم ذوى سفه

لو أبصروا طيف ضيف في الكرى ماتوا

وفيها توفي الأمير أبو الحسن على بن ديبس صاحب الحلة . كان شجاعاً جواداً إلا أنه كان على عادة أهل الحلة رافضياً خبيثاً .

وفيها توفي قتيلا الوزير على بن سلاّر وزير الظافر صاحب الترجمة بديار مصر . كان يلقب بالملك العادل . وتولى الوزير بعده عباس أبو نصر الذي قتل الظافر ، حسب ما ذكرنا ذلك كله مفصلاً .

وفيها ملكت الفرنج عسقلان بالأمان بعد أن قتل من الفريقين خلق كثير ، وكان قد تمادى القتال بينهم في كل سنة إلى أن سلموها . وأخذ الفرنج جميع ما كان فيها من الذخائر وغيرها .

السنة الثانية من ولاية الظافر على مصر وهي سنة
ست وأربعين وخمسة .

فيها دخل السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه
السلجوقي إلى بغداد ، وخرج الوزير ابن هبيرة وأرباب
الدولة إلى لقائه فأكرمهم .

وهذا الرجل الذي عتسى نفسه بهذه الأعمال الكثيرة
وظل مكباً عليها إلى ما قبيل وفاته ، لم يسلم من نقد
رجلين مؤرخين ممن عاصروه ، وهما ابن الصيرفي
والسخاوي . وما أكثر ما توغر المشاركة في عمل
صدور المعاصرين ، ثم إنا ما عرفنا السخاوي ترك
علماً من أعلام عصره دون أن يجرحه وينقله وما نجا
منه المقرئ شيخ المؤرخين في عصره ، ولا ابن
خلدون شيخ مؤرخي الإسلام .

ولقد ظل أبو المحاسن مشغولاً بعمله وتأليفه
لا يصرفه عنه صارف إلى أن توفاه الله في يوم الثلاثاء
خامس ذي الحجة سنة أربع وتسعين وثمانمائة .

وحسب هذا الراحل عزاء عما ترك من عمل
صالح ، ما كتبه عنه تلميذه أحمد بن حسن التركماني
في ترجمته له :

« ونرجو إن أطل الله عمره وفسح في أجله ليملأ
خزائن من العلوم والمصنفات في كل فن ليعلمي
باتساع باعه في التصنيف والتأليف » .

ثم قول ابن إياس فيه : « وهو الذي قد خلف
أبا المحاسن على زعامة المؤرخين بمصر : وضع لنا حقاً
أنه كان رئيساً حشماً فاضلاً حنفياً المذهب وله اشتغال
بالعلم وكان مشغولاً بكتابة التاريخ » .

ثم حسب ابن تغري بردي في وصف نفسه شعره
الذي يقول فيه :

تجارة الحب غدت في حب خود كاسده

ورأس مالى هبة لفرحتى بفائده

وفيها توفي أحمد بن منير بن أحمد الأديب
أبو الحسين الطرابلسي الشاعر المشهور المعروف بالرفاء .
ولد سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة بطرابلس . وكان
بارعاً في اللغة العربية والأدب إلا أنه خبيث اللسان كثير
الفحش . حبسه الملك تاج الملوك بوري صاحب دمشق ،
وعزم على قطع لسانه ، فاستوهمه منه الحاجب يوسف
ابن فيروز فوهبه له فنفاه . وكان هجاً خلّاتق كثيرة ،
وكان بينه وبين ابن القيسراني مهاجاة ، وكان رافضياً .
وكانت وفاته بحلب في جمادى الآخرة . ومن شعره :

جنى وتجننى والفؤاد يطيعه

فلا ذاق من يجنى عليه كما يجنى

فان لم يكن عندي كعيني ومسمعي

فلا نظرت عيني ولا سمعت أذني

وفيها توفي الأمير تمر تاش بن نجم الدين ايلغازي
الأرتقي صاحب ماردين وديار بكر . كان شجاعاً
جواداً عادلاً محباً للعلماء والفضلاء يبحث معهم في فنون
العلوم . وكان لا يرى القتل ولا الحبس . ومات في ذي
القعدة ، وكانت مدته نيماً وثلاثين سنة . وقام بعده
ابنه .

وفيها توفي حيدر بن الصوفي الذي كان أقامه
مجير الدين صاحب دمشق مقام أخيه ، ثم وقع منه سعى
بالفساد ، فاستدعاه مجير الدين إلى القلعة على حين
غفلة فضرب عنقه لسوء سيرته وقبح أفعاله .

الذين ذكر الذهب وفاتهم في هذه السنة ، قال :
وفيها توفي أبو بكر محمد بن أبي حامد بن عبد العزيز بن
علي الدينوري البسّيج ببغداد . والمبارك بن أحمد بن
بركة الكندي الحبار .

أمر النيل في هذه السنة : الماء القديم ست أذرع
وأربع وعشرون أصبغاً . مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً
وثلاث عشرة أصبغاً .

* * *